

تربية الشخصية في مرحلة البلوغ

بقلم الأستاذ محمد خلف الله

عضو لجنة دار العلوم بالبحر

يجدر بنا ونحن في دور نهضة وانتقال أن نأخذ حذرنا، وألا نهمل تربية الشخصية في فتياتنا وفتياتنا، في سبيل الحرص على تنمية مواهبهم الذهنية، خصوصا بعد أن لمسنا بأنفسنا نقص الشببية المصرية في الناحية الأولى، وبعد أن شكت المصالح المختلفة ووزارة المعارف من عجز خريجي المدارس الثانوية عن حسن القيام بالأعمال التي تعهد إليهم، والتي ينبغي ألا يعجز عنها طوقهم فعظمهم فاقده الشخصية متردد، يهاب تكوين رأى له مستقل، فضلا عن إعلائه، وهم لا يكادون يبينون عن أفكارهم كلاما أو كتابة بعبارة موجزة بليغة صحيحة، عريية كانت أو أجنبية. (١)

هذه الشكوى صادقة، وبحيث أول واجب على المربين والمصلحين، والطريق إلى علاجها أصبح ميسورا، ولا سيما بعد أن ارتقت مباحث علم النفس الحديث، ووجهت نظرها إلى دراسة الشخصية بمختلف الطرق والأساليب العلمية، وبينت مثل النمو الطبيعي في الأفراد، ومظاهر الضعف والشذوذ عند بعضهم، ومصادر ذلك النقص والوسائل إلى تلافيه.

من المعروف أن الطفل يواجه في مرحلة التعليم الثانوى - والعالى - دورا من أدوار نموه له خطره وأهميته، اصطلاح علماء النفس على تسميته بمرحلة البلوغ

(١) من تقرير معالى وزير المعارف المصرية عن التعليم الثانوى - أهرام ١٠ من

مايو سنة ١٩٣٥.

وحددوا زمنه بالتقريب فيما بين الثانية عشرة والعشرين من العمر ، وأجروا عليه التجارب ، وكتبوا فيه المؤلفات ، وتناولوه من وجهاته المختلفة . وإذ كان ههنا فيما نحن بصدده أن نحلل هذه المرحلة من وجهتها النفسانية (١) ونقتصر من هذه على ماله ارتباط بالشخصية فلندع النواحي الأخرى لأوقاتها ولنقل إذاً ، إن الطفل يواجه في هذا الدور مشكلات ثلاثاً تفصل الكلام عليها فيما يلي :

المشكلة الأولى هي الخروج من وسط الأسرة إلى محيط المجتمع ، أو بعبارة أخرى هي معضلة النظام النفساني ، إذ يتجه المراهق في هذا الدور إلى تغيير عاداته والخروج عن مألوف طفولته ، والتحرر من رق الاعتماد على أبويه وأهله ، والرغبة في الاستقلال في حياته الوجدانية والعاطفية .

هذا الاتجاه طبعي ، وإذا سار سيرته الطبيعية وتغلب على ما يصادفه من عقبات لم يصل الشخص إلى سن العشرين إلا وقد استقل عن المنزل بشعوره ، وشب عن طوق استسلام الطفولة والتظلل بظل الأبوين ، وأعد نفسه لمواجهة الدنيا بما فيها من شؤون وصعاب .

غير أن التخلي عن صفات الطفولة ليس بالأمر السهل ، وكثير من الأشخاص يعجزون عنه فيبقون مرضى بحب المنزل طول حياتهم . وقد يشل هذا المرض إرادتهم فينشئون ناقصي الشخصية ، فاقدي الهمة والأمل . والذنب في هذا ليس ذنبهم وحدهم بل هو ذنب البيئة والآباء الذين لا يُعوِّدون الطفل من صغره الاعتماد على نفسه ، والذين ينظرون إليه على أنه ينتمي إليهم لا إلى نفسه ولا إلى الجيل الذي ينشأ فيه . وقد يغفلون في حبهم له فيكثرون من اهتمامهم الشديد به ووضعه في فراشه ، ومناداته بأسماء الطفولة ومساعدته في أكله ولبسه . وقد يسرف بعض الأمهات في تعلقهن الشديد بأولادهن ، فيسببن لهم كثيراً من المتاعب التي تحول بين الكثيرين منهم وبين النجاح إذا فارقوا منازلهم إلى جهات بعيدة . وبحوث علم

(١) قد يكون من المناسب في الكتابات الصيكلوجية أن نستعمل كلمة (نفساني)

لما هو خاص بعلم النفس - وكلمة (نفسى) لما هو منسوب إلى النفس .

الفكر، ناضجى التدبير، يعملون بعزيمة وجد، سائرين على الدرب الموصل إلى النجاح، إذا نحن نجد آخرين قد وقفت بهم المطى، وقصروا دون الغاية، فلم يهتدوا إلى ما يناسبهم من عمل. وظلوا يترأفون بين تجارة وتجارة أو بين مدرسة وأخرى.

وأما النقطة الجوهرية الثانية فى مرحلة البلوغ فهى معضلة اتخاذ فلسفة فى الحياة، وتناول إِبصار الشخص فى نفسه، وتفكيره فيما خلق له، وفى الدور الذى سيلعبه على مسرح الحياة، وفى علاقته بالجماعة الملاصقة له، والمجموع الذى يعيش فيه، وبوطنه وحكومته، ونظرة فى ملكوت السموات والأرض، وفى معنى الوجود والخلود وسر الحياة والموت وماذا وراء الطبيعة من خفايا وأسرار.

هنالك فى بالغى كل أمة حوالى خمسة أو ستة فى المِئْة لا يرتفعون فى تفكيرهم إلى مستوى الطفل ذى الثانية عشرة. مثل هؤلاء لا يتعبون أنفسهم فى التفكير الفلسفى أو الدينى، ولا ينظرون وراء الأسبوع أو الفصل الذى يعيشون فيه، وإنما يأخذون الدنيا على علاتها يوماً بيوم، وينعمون بجهلهم فى الحياة.

وهناك من الجهة الأخرى نحو عشرة فى المِئْة من السكان يبدون فى سن الطفولة يتساءلون عن الوجود وأسراره سؤال الجاد الظامى، وهؤلاء هم أذكي جيلهم وهم عرضة أكثر من غيرهم للتعب والنزاع العقلى، ومن هؤلاء فيما بعد تنبعث المذاهب الفلسفية والأخلاقية. إلا أن المرحلة الطبيعية لتفكير غالبية كل أمة فى هذه المعضلات هى مرحلة البلوغ، ففىها تثور الشكوك الدينية، ويحتدم النزاع الداخلى ويكثر ولوع اليافع بالمناظرات السياسية والفلسفية، وتشغل البنت أو الولد جزءاً كبيراً من الوقت فى التفكير فى النفس، والاستعداد للمستقبل. أما نفس كل شخص فهى محور تجاربه، وهى تظهر فى نواح متعددة: فى منظر جثمانه، فى أخلاقه وعمله، فى تصرفه الاجتماعى... وهلم جرا، ثم هى تستمد قواها من بيئته التى نشأ فيها: من معهده ولغته، من دينه ووطنه. فنفس كل شخص إذاً هى مجموعة هذه الأنفس فيه، وهى تنمو من جذيرات صغيرة تنبثق فى عهد الطفولة

ثم تأخذ شكلها الكامل في مرحلة البلوغ ، وتتكيف بالصورة التي سيكون عليها الشخص طول حياته ، وفي مرحلة البلوغ يقوى شعور الشخص بنفسه فيطيل النظر إلى المرأة ، ويعتنى بهندامه ، ويتنبه لشعور الناس نحوه وطرق خطابهم له ، ويحلم في يقظته ومنامه بما تكنه له زوايا المستقبل .

وشأن البنات في ذلك شأن الأولاد ، إلا أنهن يفقهنه بالطبع في العناية بمظهرهن وملبسنهن وتجميل أنفسهن .

وإذ كانت مدارك الشاب العقلية تصل في هذه المرحلة إلى أقصى غايتها من النمو ، فمن الطبيعي أن يشغل إذاً بالتفكير في المغنويات بعد أن شغله عالم الحس والذات أيام الطفولة الأولى ، ومن الطبيعي ، وقد كملت رجولته ، أن يطلب لنفسه مكانها في هذا الوجود الشامل ، فهو يبحث عن الكمال لنفسه بين العطاء الذين يعيشون في عصره ، وبين النابغين الذين يحدثه عنهم التاريخ . وبين الأبطال الذين تصورهم له تراجم الحياة ومسارح التمثيل وصفحات الروايات .

من هذا يدرك القارئ مس الحاجة في هذه المرحلة إلى مساعدة الطفل على الحيلة في اختيار الكتب التي يقرأها : والروايات والأفلام التي يشاهدها ، ومن هذا يدرك زعماء الأمة وكبرائها مسئوليتهم أمام الله والتاريخ . إذ يضربون بأعمالهم مثلاً سوف يقلده الجيل الناشئ ، فإن كان الكبراء بعيدى المهمة قوين الشخصية . ثابتى الايمان ، مخلصين للوطن ، ترسم الناشئون خطاهم ، وبنوا كما كانت أوائلهم تبنى ، وإلا فقل على المستقبل ورجاله السلام . ومما يجب تنبه الآباء والمربين له أن يحتاطوا من أن يلبجوا الولد إلى تقليد شخص واحد واتخاذ مثله الأعلى . بل عليهم أن يوجهوه إلى الاختيار وانتقاء الصفات والمزايا الفاضلة ، فيقلد الشجاعة في واحد ، والأمانة في ثان ، والجلد والصبر في آخر ، وهلم جرا . ثم ليحذر المشرفون على الطفل أن يدعوه يقلد غير الجوهرى من الصفات والعادات كالطفل الذى اعتاد أن يستعين بالمنبه على القيام من نومه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فيخرج للرياضة مقلداً في ذلك ماقرأه من أن جوته الشاعر الألماني كان يفعل هذا أحياناً .

على أن التقليد وحده ليس كافيا في بناء الخلق، فأهم منه الاعتماد على النفس والاعتداد بها، واقتحام الصعاب ومعرفة الحد الذي تصل إليه طاقة الفرد في مغالبة هذه الصعاب.

وليكن القائمون على أمر الطفل رفقاء به، حراسا على نجاحه في فضاله حتى لا يسد عليه الإخفاق أبواب تفكيره السليم، فيدفعه في طريق الاجرام أو الجنون إذ أثبت علم النفس الحديث أن الاجرام والجنون والانتحار إنما تنشأ في الغالب من الخيبة في معرفة النفس، وفي العثور عليها وفي التوفيق بين مطالب الحياة المختلفة. ولهذا الأمراض مقدمات تظهر عادة في التحفظ الشديد، والصمت الزائد، والعزلة والجفاء. وانكسار البال. كذلك كثيرا ما يلجأ الأحداث في مرحلة البلوغ إلى عوائد السكر، وتعاطى المخدرات إذ يجدون فيها مخرجا من معضلات الحياة ومصاعبها الوجدانية.

أما تحديد علاقة الشخص ببيئته فذلك يقوم على أساسين لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، أولهما شخصية الفرد، وثانيهما عضويته في المجموع.

والمدرسة هنا تستطيع أن تكون عاملا كبيرا في تحديد تلك العلاقة وتكييفها، والتوفيق بين حرية الفرد وسلطة المجموع، وذلك بما تقوم عليه المدرسة من وحدات اجتماعية صغيرة تسميها فصولا، وبما تنظمه من حفلات وألعاب ورحلات ينمو فيها الشعور بروح الجماعة، ويتعلم فيها الفرد الولاء لرفاقه، والدفاع عنهم، والخضوع لقوانينهم. ثم يشعر فيها فوق ذلك أنه ينتمي إلى وطن صغير له دستوره وتقاليده، وهذا ينمي فيه شعوره بانتمائه إلى وطنه الأكبر، مهبط أبيه وجده ومصدر فخره ومجده.

من هذا نرى ضرورة احتفاظ كل معهد على بكيانه واستقلاله، وغرس حب ذلك المعهد في قلوب طلابه بمختلف الوسائل والأساليب، من اتخاذ شارة خاصة له، وإحياء أعياد سنوية، به وعقد حفلات يحضرها كبار خريجيه وصغارهم، وإقامة ألواح الشرف يخلد عليها أسماء النابهين منهم، وتنظيم المباريات العلمية والرياضية بين ذلك المعهد وأمثاله من المعاهد الأخرى.

على أن التقليد وحده ليس كافياً في بناء الخلق، فأهم منه الاعتماد على النفس والاعتماد بها، واقتحام الصعاب ومعرفة الحد الذي تصل إليه طاقة الفرد في مغالبة هذه الصعاب.

وليكن القائمون على أمر الطفل رفقاء به، حراساً على نجاحه في نضاله حتى لا يسد عليه الإخفاق أبواب تفكيره السليم، فيدفعه في طريق الاجرام أو الجنون إذ أثبت علم النفس الحديث أن الاجرام والجنون والانتحار إنما تنشأ في الغالب من الخيبة في معرفة النفس، وفي العثر عليها وفي التوفيق بين مطالب الحياة المختلفة. ولهذه الأمراض مقدمات تظهر عادة في التحفظ الشديد، والصمت الزائد، والعزلة والجفاء. وانكسار البال. كذلك كثيراً ما يلجأ الأحداث في مرحلة البلوغ إلى عوائد السكر، وتعاطي المخدرات إذ يجدون فيها مخرجاً من معضلات الحياة ومصاعبها الوجدانية.

أما تحديد علاقة الشخص ببيئته فذلك يقوم على أساسين لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، أولهما شخصية الفرد، وثانيهما عضويته في المجموع.

والمدرسة هنا تستطيع أن تكون عاملاً كبيراً في تحديد تلك العلاقة وتكييفها، والتوفيق بين حرية الفرد وسلطة المجموع، وذلك بما تقوم عليه المدرسة من وحدات اجتماعية صغيرة تسميها فصولاً، وبها تنظمه من حفلات وألعاب ورحلات ينمو فيها الشعور بروح الجماعة، ويتعلم فيها الفرد الولاء لرفاقه، والدفاع عنهم، والخضوع لقوانينهم. ثم يشعر فيها فوق ذلك أنه ينتمي إلى وطن صغير له دستور وقيائده، وهذا ينمي فيه شعوره باتمائه إلى وطنه الأكبر، مهبط أبيه وجده ومصدر نفعه ومجده.

من هذا نرى ضرورة احتفاظ كل معهد على بكيانه واستقلاله، وغرس حب ذلك المعهد في قلوب طلابه بمختلف الوسائل والأساليب، من اتخاذ شارة خاصة له، وإحياء أعياد سنوية، به وعقد حفلات يحضرها كبار خريجيه وصغارهم، وإقامة ألواح الشرف يخلد عليها أسماء النابهين منهم، وتنظيم المباريات العلمية والرياضية بين ذلك المعهد وأمثاله من المعاهد الأخرى.

وأما بحث الطفل في مرحلة البلوغ عن تحديد علاقته بوطنه الأكبر فذلك ما يجب على أولى الأمر الآن في مصر أن يولوه اهتمامهم ، وأن يعينوا الطفل في جهاده في هذه المرحلة بما ينظمون من محاضرات عامة ، ومن إذاعات على اللاسلكي وبما يزودونه به من دروس التربية الوطنية ليعرف الطفل حقوقه وواجباته ، وليعلم نظام الحكم في بلاده ، وليقيس ذلك بما يعرفه عن نظم الحكم في البلاد الأخرى . ثم ليرحب من ييدهم الأمر بما يجدون عند الطفل من رغبة في الجدل وحب في المناظرة فيشجعوه على بحث الموضوعات التي تصبو إليها نفسه في هذه السن ، كموضوعات : الحق والقوة ، الإنسان الكامل ، الحكومة الفاضلة .. وهلم جرا . أما الشعور الديني فلا نسبة بين أهميته في حياة الطفل وبين القدر الضئيل من العناية الموجهة إليه في مصر . ويخيل إلى أننا في مصر لا ندرك قيمة الدين عاملاً من أكبر العوامل في بناء الشخصية وتزويدها بالمثل الأعلى في الحياة ، ولا دعامة من دعائم الاستقرار في الأمة ، وتماسك أنظمتها ، وترابط صفوفها . قلنا فيما سبق إن الطفل يشغل باله في مرحلة البلوغ بمشكلات الخلق والوجود وأسرار المبدأ والمعاد ، ومعضلات الحياة والموت ، وأنه كثيراً ما يساوره الشك فيما حوله من أحكام ومعتقدات ، وأنه لهذا يلتمس الهداية من أب يسأله ، أو أستاذ يستوضحه ، أو كتاب يقرؤه ، ولقد أعرف بين رفقاء في مصر من كانوا في هذه المرحلة يصرفون وقتاً في التفكير والنظر ، وأعرف منهم من قرأ معظم كتب الغزالي وابن الحاج وابن رشد ، وأعرف من بينهم من كان يدون في مذكراته اليومية كل ما يعرض له من شكوك وخواطر وما تقدمه يده من سيئات وحسنات .

إذا فرحلة البلوغ فرصة يجب اغتنامها لمن يغارون على دينهم وأمتهم ، ويحبون أن يروا أبناء الأمة وبناتها ولهم وجهة نظر في الحياة . وإيمان صادر عن علم ويقين . وهنا نجد السبيل مفتوحاً للمتفكرين في الدين يستخرجون مافي كتاب الله وسنة رسوله وسير الصالحين وآراء الفلاسفة من أسرار وحكم ، ويصورون من كل هذا ومن تاريخ الأمة مثلاً عالياً تتجه إليه نفوس الشبية ، وتقيس عليه أعمالها ، ثم يعرضون

على الناشئة تلك المثل في كتاب أو رواية أو محاضرة، أو حديث على البرق، أو شريط أو خطبة في يوم جمعة أو عيد، أو افتتاح عام دراسي أو اختتامه. كذلك يجب علينا - وهو في استطاعتنا - أن نهتم بإحياء التقاليد الدينية في مدارسنا ومعاهدنا، وأن ننتفع بالأعياد الدينية فيما قصدت له من تربية الشعب وجمع كلمته وإحياء شعوره، وأن نحث بنينا وبناتنا ورجالنا ونساءنا أن يعمرُوا مساجد الله، فإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله.

وإذا ذكرنا الدين فلنذكر بجانبه لغة الدين، لغة الحضارة الإسلامية، لغة الوطن المحبوب، لغتنا العربية. بلادنا من هذه الوجهة في مركز غريب، وستظل حياتنا الاستقلالية ناقصة، وشخصيات أبنائنا مفككة حتى يعم التعليم فتوحده اللغة وتوحد الأفكار وتوحد القلوب والجهود. وإتنا - وإن كنا قد خطونا خطوات واسعة في هذه السبيل في الخمسين سنة الأخيرة - يجب أن نحث الخطأ وأن نضاعف العمل، وأن نستعين على تعميم الفصحى وتوطيد دعائمها بكل الطرق والوسائل. وما يخطر لي في هذا الباب إنشاء عصبة من المشتغلين باللغة يتواصلون باستعمال الفصحى في منازلهم مع أسرهم وأولادهم، وفي ناديم ومدارسهم وكتباتهم. وأينما ضربوا في الأرض أو مشوا في الأسواق، وليكن من عملهم أن ينشروا الدعوة في رفق وكياسة، وأن يغالبوا ما يصادفهم من عقبات، وأن يحملوا قادة الرأي في البلد على أن يجعلوا تعميم الفصحى نقطة بارزة في برامجهم^(١). وهذه في نظري خدمة وطنية وخطوة في سبيل الاستقلال الفكري لا تقل أهمية عن إنشاء مصرف مصر في بناء استقلالنا الاقتصادي.

محمد هلف الله

للبحث بقية

(١) ومن أولى بذلك من نادى دار العلوم